دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	بين الفلسفة والجماهير .. هل يفهم العالم نفسه ليتغير .. ؟
المصدر:	مجلة الدبلوماسي
الناشر:	وزارة الخارجية - معهد الأمير سعود الفيصل للدراسات الدبلوماسية
المؤلف الرئيسي:	غرامشي، أنطونيو
مؤلفين آخرين:	حامد، خالدة(م. مشارك)
المجلد/العدد:	ع 32
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2007
الشهر:	يناير - محرم
الصفحات:	42 - 45
رقم MD:	384848
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	الأحوال الاجتماعية ، الفلسفة ، الفلاسفة ، الحداثة ، الفكر السياسي ، الأحوال السياسية ، العالم ، النظم السياسية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/384848

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

بين الفلسفة والجماهير ..

هل يفهم العالم نفسه ليتغير .. ؟!

بقلم : أنطونيو غرامشي
ترجمة: خالدة حامد

تبدو ضرورة تدمير الوهم الشائع ومفاده أن الفلسفة شيء غريب وصعب فقط لأنها نشاط فكري مقصور على فئة معينة من المتخصصين أو الفلاسفة المحترفين والمنهجيين. لابد أولاً من البرهنة على أن البشر كلهم «فلاسفة»، من خلال تعريف حدود «الفلسفة العفوية spontaneous وسماتها المعرفية لدى كل فرد. إن المقصود بذلك هو أن هذه الفلسفة متضمنَّة في:

- اللغة نفسها التي هي مجموع الأفكار والمفاهيم المحددة، لا مجموع الكلمات الخالية من المضمون النحوي.
- «الحس المشترك» common sense و«الفطرة السليمة» good sense.
- دين شعبي، بما فيه كامل نظام الاعتقادات والخرافات والآراء ووجهات النظر وأنماط السلوك التي تندرج بمجموعها تحت عنوان «الفولوكلور».

بعد أن وضحنا، في البدء، أن كل فرد فيلسوف، وكلٌّ على طريقته ومن دون وعي منه، وفي أبسط تجليات أي نشاط فكري كان- أي يوجد في اللغة تصور معين يمكن الفرد من الانتقال إلى المرحلة الثانية، وأعني بها مرحلة الوعي والنقد- نستطيع الانتقال إلى السؤال الآتي: هل من الأفضل «أن نفكر» بصورة جزئية وعرضية، دون امتلاك وعي نقدي؟ بمعنى آخر: هل من الأفضل المشاركة في تصور العالم الذي تفرضه علينا البيئة الخارجية آليًا، أي من خلال إحدى الزُمَر الاجتماعية الكثيرة التي ينغمر فيها كل شخص، آليًا، من لحظة دخوله إلى عالم الوعي (الذي قد يتمثل هنا بقريته أو مدينته، وفي «النشاط الفكري» لشيخ البلدة أو للرجل الطاعن في السن الذي تسري حكمته مسرى القانون، أو للعجوز الضئيلة التي ورثت الخزعبلات، أو للمفكر الصغير الذي ضلله غباؤه وعدم قدرته على التصرف)؟ أو، من ناحية أخرى، هل من الأفضل للمرء أن يصنع تصوره للعالم بوعي منه وعلى نحو نقدي، وبذا يختار، اعتمادًا على قدراته العقلية، مدى نشاطاته الخاصة، ويسهم بشكل فاعل في صنع تاريخ العالم، ويكون هاديًا guide لنفسه، رافضًا أن يتقبل، بسلبية وخنوع، تأثيرات العالم الخارجي الرامية إلى تغيير شخصيته؟

الدرس الأول

عندما يكتسب المرء تصوره الخاص للعالم، فإنه ينتمي دائمًا لزُمرة معينة تضم جميع العناصر الاجتماعية التي تشاطره نمط التفكير والعمل نفسه. فكل فرد مقيد بأمور معينة، إنه إنسان نمطي، جمعي دائمًا. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما النوع التاريخي الذي يتخذه هذا الالتزام بالتقاليد، وهذه الإنسانية النمطية التي ينتمي إليها الفرد؟ فعندما لا يكون تصور المرء للعالم نقديًا ومتماسكًا بل منفصلاً وعَرَضيًا، ينتمي المرء، على الفور، لعدد من الزُمَر الإنسانية النمطية، وتكون شخصيته مُركبًا غريبًا، فهي تحوي عناصر العصر الحجري ومبادئ العلم الأكثر تقدمًا، وأوهام من جميع المراحل التاريخية الماضية، إلى جانب حدوس عن فلسفة المستقبل التي ستكون فلسفة الجنس البشري عندما يحقق وحدته العالمية. وهكذا فإن انتقاد تصور المرء للعالم يعني، لهذا السبب، جعله وحدة متماسكة ورفعه إلى المستوى الذي بلغه الفكر الأكثر تقدمًا في العالم. ويعني أيضًا نقد كل فلسفة سابقة ما دامت قد تركت على الفلسفة الشعبية ترسبات متراكمة. إن النقطة التي سينطلق منها الإعداد النقدي هي وعي المرء لماهيته، أي «اعرف نفسك» بوصفك نتاجًا لسيرورة تاريخية ما زالت مستمرة حتى الآن، وخلّفت فيك ما لا يحصى من الآثار، ومن دون أن تترك وراءها قائمة بها (أي الآثار).

الدرس الثاني

لا يمكن فصل الفلسفة عن تاريخ الفلسفة، مثلما لا يمكن فصل الثقافة عن تاريخ الثقافة. ولا يمكن أن يكون المرء فيلسوفًا، ضمن أكثر المعاني مباشرة وصلة بالموضوع، وأعني بذلك لا يمكن أن يكون له تصور نقدي ومتماسك دون أن يمتلك وعيًا بتاريخانية historicity هذا التصور، وبمرحلة التطور التي يمثلها وبحقيقة أنه يناقض تصورات أخرى أو عناصر لتصورات أخرى. إن تصور الفرد للعالم هو استجابة لمشكلات محددة يفرضها الواقع، وهي محددة تمامًا و«أصيلة تمامًا» في صلتها المباشرة به، فكيف يمكن التفكير بالحاضر، تحديدًا، بنمط من الفكر متطور عن ماضٍ ناءٍ، غالبًا، تم إبطاله؟ فعندما يفعل شخصٌ ما ذلك فهذا يعني أنه غير منسجم مع العصر (يرتكب مفارقة تاريخية) أو أنه متحجر لا يعيش في العالم الحديث، أو أنه، على الأقل، مُركّب غريب.

والحقيقة هي أن الزُمَر الاجتماعية التي تعبر، بطريق ما، عن أكثر أشكال الحداثة تطورًا، تكون متخلفة في جوانب أخرى، إذا علمنا وضعها الاجتماعي، وتكون بسبب ذلك عاجزة عن تحقيق الاستقلال التاريخي الكامل.

الدرس الثالث

إذا صح القول إن كل لغة تتضمن عناصر العالم أو الثقافة، لصح أيضًا القول بإمكانية الكشف عن مدى تعقيد تصور الفرد للعالم أو بساطته من خلال لغته. فالفرد الذي لا يتحدث إلا باللهجة العامية dialect، أو الذي يكون فهمه للغة الفصحى قاصرًا، يكون لديه، بالضرورة، حدس للعالم لكنه محدود، نوعًا ما، وضيق الأفق ومتحجر أيضًا ومنطو على مفارقة تاريخية إزاء تيارات الفكر الأخرى التي تهيمن على تاريخ العالم. وستكون اهتماماته محدودة، متجهة صوب مهنته، إلى حد ما، أو ذات توجه اقتصادي، وليست كلية universal. وعلى الرغم من عدم إمكانية أن يتعلم الفرد، دائمًا، عددًا من اللغات الأجنبية تجعله على اتصال بمختلف الأشكال الثقافية الأخرى، لابد له على الأقل، أن يتقن لغته القومية، لأن الثقافة الكبرى يمكن ترجمتها إلى ثقافة كبرى أخرى، كما يمكن أن تكون وسيلة تعبير عالمية، في حين لا تستطيع اللهجة العامية تحقيق ذلك.

الدرس الرابع

إن خلق ثقافة جديدة لا يعني الاكتشافات الفردية «الأصيلة» التي يحققها الفرد فحسب، بل يعني أيضًا، وبتخصيص أكبر، نشر الحقائق، المكتشفة سابقًا، نشرًا نقديًا، وتنشئتها اجتماعيًا، إن جاز لنا القول، أو حتى جعلها أساسًا لعمل فاعل وعنصر للتنسيق والتنظيم الفكري والأخلاقي، فدفع جمهور من الناس إلى التفكير بالعالم الحاضر تفكيرًا متماسكًا، يعد حدثًا «فلسفيًا» أكثر أهمية وأصالة من اكتشاف عبقرية «فيلسوف» ما لحقيقة تبقى

■ لو أمكن وجود وحدة بين المفكرين والبسطاء كتلك التي بين النظرية والتطبيق، لأنعم الفرد بثبات ثقافي وفكر عضوي

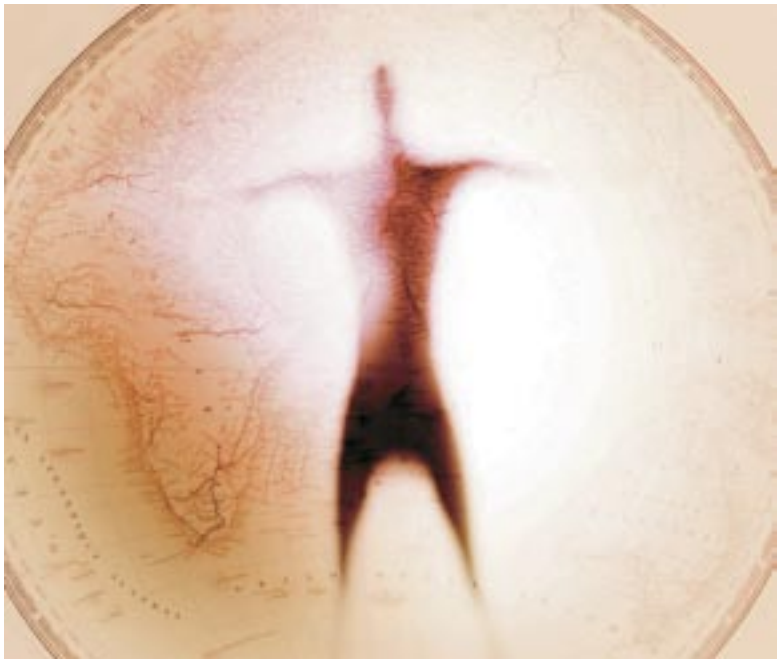

ملك زُمَر صغيرة من المفكرين.

العلاقة بين العلم والحس المشترك

الفلسفة، بمعناها العام، غير موجودة في الواقع، بل توجد فلسفات أو تصورات مختلفة للعالم، والمرء يختار منها دائمًا ما يشاء، فكيف يكون خياره؟ هل هو حدث فكري ليس إلا، أم أنه شيء يتسم بتعقيد أكبر؟ أليست الحال المتكررة هي أن ثمة تناقضًا بين خيار الفرد الفكري ونمط سلوكه؟ ولهذا السبب، أيٌّ منها يمثل تصوره الحقيقي للعالم: أهو الخيار الفكري الذي يؤكده المنطق، أم الذي ينبع من النشاط الحقيقي لكل إنسان والذي يتجلى في نمط فعله؟ وما دام الفعل كله سياسيًا، ألا نستطيع القول إن الفلسفة الحقيقية لكل إنسان متضمَّنة، بمجموعها، في فعله السياسي؟

إن هذه المقارنة بين الفكر والفعل، أي تعايش تصوري العالم- الذي يؤكد الفرد أحدهما بالكلمات ويتجلى الآخر في فعله المؤثر- لا تمثل، ببساطة، حصيلة خداع الذات، لأن خداع الذات يمكن أن يكون تفسيرًا وافيًا لقلة من الأفراد على حدة، أو حتى لزمر من حجم معين، إلا أنه غير وافٍ عندما تخص المقارنة حياة جماهير كبرى. ففي مثل هذه الحالات لا يمكن أن تكون المقارنة بين الفكر والفعل سوى تعبير عن مقارنات، أكثر عمقًا، لنظام تاريخي اجتماعي، فهي تدل على أن التصور الذي تملكه زمرة اجتماعية ما عن العالم يتجلى في أفعالها- وإن كان جنينيًا- لكن ذلك يكون أحيانًا بسرعة خاطفة، أي عندما تتصرف الزمرة بوصفها مجموعة عضوية. لكن، بسبب الخضوع والإخضاع الفكري، تتبنى الزمرة تصورًا لا يخصها بل تستعيره من زمر أخرى، وتؤكده لفظيًا وتؤمن بأنها تسير على نهجه لأنه التصور الذي تنتهجه في «الأحوال الاعتيادية»، أي عندما لا يكون سلوكها مستقلاً وذاتيًا، بل خاضعًا وتابعًا. وربما يلاحظ المرء أكثر من ذلك حينما يعي أن اختيار تصور ما للعالم، ونقده، ما هو إلا شأن من شؤون السياسة.

إن الذي ينبغي علينا تفسيره بعد ذلك هو الكيفية التي يصادف أن تتعايش فيها- في جميع الحقب- الكثير من أنظمة الفكر الفلسفي وتياراته، وكيف تولد هذه التيارات وكيف تنتشر ولماذا تتشظى- في أثناء سيرورة انتشارها- لتتخذ مسارات معينة واتجاهات معينة. تبين حقيقة هذه السيرورة مدى ضرورة تنظيم حدوس الفرد عن الحياة والعالم تنظيمًا ممنهجًا ومتماسكًا ونقديًا.

فما صورة الفلسفة عند الشعب؟ يمكن لنا استحضار هذه الصورة بالرجوع إلى التعبيرات المتداولة في الكلام اليومي، ومن أكثرها شيوعًا: «يتناول الأمر فلسفيًا». ولا يمكن رفض هذا التعبير جملةً وتفصيلاً إذا تأملنا فيه، فهو ينطوي على دعوة ضمنية بالتسليم والصبر. لكن يبدو لي أن أهم لفظة فيه هي الدعوة إلى التأمل والإدراك التام بأن كل ما يحدث عقلاني تمامًا، ولا بد من مواجهته انطلاقًا من هذا الأساس، وأن على المرء أن يلجأ إلى قدرته على التركيز العقلي، وألا يترك غرائزه ودوافعه العنيفة تحمله بعيدًا. ومن الممكن مقارنة العبارات الشعبية بما يشبهها من عبارات الكتاب الشعبيين ـ والأمثلة من معاجم كبيرة- تحوي مصطلح «فلسفة» و«فلسفيًا». ونلاحظ في هذه الأمثلة أن المعنى الدقيق لهذين المصطلحين هو: التغلب على الأهواء البهيمية والبدائية، عبر تصور الضرورة، الذي يوجه نشاط الفرد توجهًا واعيًا، وهذه هي بالضبط النواة السليمة للحس المشترك- التي تسمى بالفطرة السليمة-والتي تستحق أن نجعلها أكثر وحدة وتماسكًا. لذا تتضح هنا مجددًا عدم إمكانية فصل ما يعرف بالفلسفة «العلمية» scientific عن الفلسفة العامية common والشعبية popular التي لا تمثل سوى مجموعة من الأفكار والآراء المتشظية.

لكننا نصل- عند هذا الموضع- إلى المشكلة الأساسية التي تواجه أي تصور للعالم أو أية فلسفة صارت حركة ثقافية، أو دينًا «أو» إيمانًا «أو» أي شيء أنتج شكلاً من أشكال النشاط التطبيقي، أو الإرادة، تكون فيه الفلسفة متضمَّنة بوصفها «مقدمة منطقية» نظرية. وهنا قد نقول إنها تتضمن «الأيديولوجيا» شريطة استعمال الكلمة في أرفع معنى لها، أي تصور العالم الذي يتجلى، ضمنًا، في الفن والقانون والنشاط

الاقتصادي، وفي جميع مظاهر الحياة الفردية والجمعية. المشكلة هي في الحفاظ على الوحدة الأيديولوجية للكتلة الاجتماعية التي تسعى تلك الأيديولوجيا إلى تماسكها ووحدتها.

إن من أبرز نقاط ضعف الفلسفات المحايثة immanentist عمومًا هو عجزها عن خلق وحدة أيديولوجية بين الأدنى والأعلى، بين «البسطاء» و «المفكرين». وقد تم تمثيل هذه الحقيقة، في تاريخ الحضارة الغربية، على مستوى أوروبا، وذلك مع الانهيار السريع الذي شهدته النهضة وحركة الإصلاح إزاء الكنيسة إلى حد ما. وقد تجلى هذا الضعف في الميدان التربوي، إذ لم تحاول الفلسفات المحايثة إقامة تصور يمكن أن يحل محل الدين في تربية (تعليم) الأطفال.

ولو أمكن وجود وحدة بين المفكرين والبسطاء كتلك التي بين النظرية والتطبيق، لأنعم الفرد بثبات ثقافي وفكر عضوي. بمعنى آخر، لو كان المفكرون مفكرين عضويين لتلك الجماهير، لتمكنوا من إعداد وتوحيد المبادئ والمشكلات التي أثارتها الجماهير في نشاطها التطبيقي ولشكلوا بذلك كتلة ثقافية واجتماعية. والسؤال الذي يواجهنا الآن هو ما أشرنا إليه آنفًا: هل يصح تسمية حركة ما «فلسفة» عندما تكرس نفسها لخلق ثقافة متخصصة مقصورة على زمر معينة من المفكرين، أو عندما، وأقول فقط عندما، تجد- في أثناء سيرورة بناء فكر متفوق على «الحس المشترك» ومرتكز على أساس «علمي» - أنها لا تنسى مطلقًا الإبقاء على صلتها بـ«البسطاء» وتجد في هذه الصلة منبع المشكلات التي شخصتها للدراسة والحل؟ لا تصير الفلسفة «تاريخية» ولا تتطهر من العناصر الفكرية ذات الطابع الفردي، وتصير «حياة» إلا بهكذا نوع من الصلات.

إن الإنسان الجماهيري النشط يمارس نشاطا تطبيقيًا لكنه لا يحمل وعيًا نظريًا عن نشاطه التطبيقي الذي يشتمل، برغم ذلك، على فهم للعالم يستطيع (من خلاله

عندما يكتسب المرء تصوره الخاص للعالم، فإنه ينتمي دائمًا لزُمرة معينة تضم جميع العناصر الاجتماعية التي تشاطره نمط التفكير والعمل نفسه

تحويل) هذا العالم. ومن الممكن أن يكون وعيه النظري متعارضًا، تاريخيًا، مع نشاطه. وربما نقول إن لديه وعيين نظريين (أو وعي واحد متناقض)؛ أحدهما متضمَّن في نشاطه، يعمل- في الواقع- على توحيده بجميع رفاقه اتحادًا حقيقيًا من أجل تبديل الواقع فعلاً، والآخر علني أو لفظي ورثه من الماضي وتشرب به بلا نقد. إلا أن هذا التصور اللفظي لا يخلو من النتائج، فهو يقيم صلات مع زمرة اجتماعية معينة ويؤثر في السلوك الأخلاقي وفي توجيه الإرادة، لكن ذلك يكون بصورة متفاوتة لكنها مؤثرة غالبًا بما يكفي لتوليد موقف لا يسمح فيه حال الوعي المتناقض بالقيام بأي فعل أو اتخاذ أي قرار أو أي خيار. والحصيلة هي السلبية (الانفعال) passivity الأخلاقية والسياسية. ولهذا السبب يحدث الفهم النقدي عبر صراع «الهيمنة» hegemony السياسية في الاتجاهات المضادة لها، ويكون ذلك عند المستوى الأخلاقي أولاً ثم عند المستوى السياسي لغرض الوصول إلى أرقى تصور للواقع. وإن وعي الفرد بأنه جزء من قوة مهيمنة (وهذا وعي سياسي) يُعد المرحلة الأولى باتجاه وصوله تدريجيًا إلى وعي الذات التقدمي الذي تتحد فيه، في النهاية، النظرية والتطبيق معًا. وهكذا فإن اتحاد النظرية بالتطبيق لا يعد حقيقة آلية فحسب، بل هو جزء من سيرورة تاريخية يمكن إيجاد مرحلتها الأولية والبدائية في شعور شبه غريزي يدفع إلى الإحساس بـ«التميز» و«الانفصال»، شعور يرتقي إلى مستوى الامتلاك الحقيقي لتصور العالم على نحو متحد ومتماسك. وهذا هو السبب وراء ضرورة التأكيد على أن التطور السياسي لمفهوم الهيمنة يمثل تقدمًا سياسيًا كبيرًا، فضلاً عن كونه مفهومًا سياسيًا تطبيقيًا، لأنه يفترض، بالضرورة، وحدة فكرية وأخلاقية تنسجم مع تصور الواقع على نحو يتخطى الحس المشترك ويصير تصورًا نقديًا، لكن في حدود ضيقة.

ومع ذلك، فإن الكشف عن مفهوم وحدة النظر بالتطبيق يكشف أنه في مرحلته الابتدائية جدًا، في أحدث تطورات فلسفة البراكسس، فما زالت هناك بقايا المذهب الآلي mechanism ما دام الناس يتحدثون عن النظرية بوصفها «مكملة» أو «خادم» للتطبيق أو صنيعته». ولعله من الصواب دراسة هذه القضية دراسة تاريخية بوصفها جانبًا من قضية المفكرين السياسية. ويعني الوعي النقدي للذات- من الناحيتين التاريخية والسياسية- خلق نخبة جديدة من المفكرين. فالجمهور لا «يميز» نفسه ولا يصير مستقلاً تمامًا دون تنظيم نفسه، ضمن المعنى الأوسع للكلمة. ولا يوجد تنظيم من دون مفكرين أي من دون منظمين وقادة، أي دون أن يكون الجانب النظري في وحدة النظرية- التطبيق متميزًا حقًا من خلال وجود زمرة من «المتخصصين» في مجال تطبيق الأفكار مفهوميًا وفلسفيًا.

ولابد من تأكيد الأهمية والدلالة التي تحظى بها الأحزاب السياسية- في العالم الحديث- في مجال إعداد تصورات العالم ونشرها، لأنها تقوم، أساسًا، بالإعداد لفلسفة وسياسة تقابل هذه التصورات وتعمل بمثابة «مختبر» تاريخي لها، إن جاز لنا القول. وتصبح العلاقة بين النظرية والتطبيق أوثق كلما كان التصور المجدد للعالم أكثر حيوية وراديكالية، ومناقضًا لأكثر طرق التفكير القديمة. ولهذا السبب يمكن القول إن الأحزاب هي التي تفتح آفاقًا فكرية جديدة تتميز بتكاملها وشموليتها كما لو أنها البوتقة التي يحدث فيها اتحاد النظرية بالتطبيق بوصفه سيرورة تاريخية واقعية. ■